

السيد المرتضى

حضوره الفكري في لبنان وما والاها

■ د. الشيخ جعفر المهاجر / لبنان

(١)

علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥-٤٣٦ هـ / ٩٦٥-١٠٤٤ م)، الأكثر شهرةً بلقب السيد المرتضى وأقل بلقب آخر هو علم الهدى - هو أحد أبرز أعلام التشيع الإمامي. عاش وعمل في بغداد في الفترة التأسيسية، التي بدأت بالأعمال الباهرة للشيخ المفيد (٣٣٤-٤١٣ هـ / ٩٣٥-١٠٢٢ م) وختمت بالمراجعة الشاملة للشيخ الطوسي (٣٨٥-٤٦٠ هـ / ٩٩٥-١٠٦٧ م). في هذا القرن من الزمان تم تأصيل التراث الشيعي الإمامي الذي تراكم أثناء القرنين ونصف القرن ما بين (١٠-٢٦٠ هـ / ٦٣١-٨٧٣ م) ونقله من مستوى النصوص المنقولة إلى مستوى النظرية الحاضرة المحفوفة بالبرهان، سواء على مستوى الأصل / العقيدة، أم على مستوى الفرع / الشريعة. وذلك إنجازٌ مدهشٌ وصعبٌ قد يصل إلى حد الاستحالة. لما هنالك من مسافةٍ مستحيلة العبور عادةً بين حدية النقل وحرية العقل. ولكن التشيع الإمامي نجح بامتياز على يد أولئك الأبطال

الثلاثة في عبورها عبوراً سهلاً خلا من صعوباتٍ حقيقية. ومن إمارات ذلك - مثلاً - أنّ النّقْدَ العقلي الشّامل الذي وجّهه الشيخ المُفيد إلى المنهج النّقلي الصّرف للشيخ الصّدوق لم يقتضِ أكثرَ من كُتَيْبٍ منحهُ اسماً هو بنفسه ذو مغزى «تصحيح اعتقادات الصّدوق».

(هنا أدعو القارئ الطّلعَة إلى مُقارنة هذه الملاحظة بالنقد العقلي الذي وجّهه المُعتزلة إلى (أهل الحديث)، ليرى كيف انتهى إلى نَسفِ الأصولِ الفكرية لهؤلاء نَسفاً. ومثله لدى أبي حنيفة وفقهه المبني على الرأي، الذي ينطوي على إزاحة النّقل جانباً).

في تلك الحركة الخلافة كان السيّد المرتضى واسطة عِقْدٍ أولئك الثلاثة الأبطال.

(٢)

يوم بدأت تلك الحركة في بغداد كان التشيع في ساحل البحر المتوسط، المُمتدّ من مدينة طرابلس في الشمال إلى ما قبل مدينة صفد في الجنوب، صُعوداً في وادي الأردنّ إلى مدينة طبرية فعمّان، كان تشيعاً لستُ أجِدُ له وصفاً أفصح من القول أنّه عاطفيّ. ورثه أهله وراثته من أسلافهم المهاجرين من مواطنهم الأصليّة في العراق. ومُذْ ذاك انقطعوا عن كلّ مصادر المعرفة وأهمّها شأنًا التواصل مع الأئمة المتولين، وما قادوا أتباعهم إليه من نهضةٍ شاملةٍ في الفكرِ بدءاً من الإمام الباقر عليه السلام. وصلت إلى إحدى ذراها بقيادة الإمام الصادق عليه السلام. ثم تابعت مسيرتها من بعده بما زودها به الأئمة منذ الكاظم عليه السلام من حراكٍ اجتماعيٍّ - سياسيٍّ، ما يزال من أسرارِ تاريخنا الحافل، وإنّما نعرفه (أي الحراك) بآثاره التي لا تخفى على العينِ الخيرة.



أولئك الشيعة، بل الشيعة في الشام عموماً، كانوا غائبين عن كل ما عمل له أئمتهم في العراق وإيران وما وراء النهر (آسية الوسطى). أمّا أسباب ذلك الغياب فهي تاريخية مزمّنة، سياسية واجتماعية، ليست هذه المقالة محلّ بسطها. ومن هنا اقترحت تسمية هذا النمط من التشيع بـ (التشيع الشامي)، لا لشيء إلا لأن المنطقة الشامية كانت أوّل منازل أولئك المهاجرين القادمين من أنحاء العراق حاملين ثقافتهم معهم مثلما يحدث في أي هجرة. وإلا فإن أكثريتهم اليوم في سورية والأناضول وتركية وألبانيا والبوسنة، حيث يُعرفون بالعلويين والبكتاشيين. ومن المعلوم أنّ أكثر هاتيك الأقطار ليست من الشام.

ومع ذلك فإن أولئك الشيعة كانت لديهم فكرة ما عمّا يسير فيه إخوانهم في العراق، وعن العلماء الأفاضل الذين يقودون المسيرة. طبعاً هم لم يكونوا في ذلك سواء، ومتى كان الناس من هذه البنى الفوقية سواء! بحيث أنّ حدثاً بحجم وفاة الشيخ المفيد كان له صده الفاجع بينهم. عبّر عنه شاعرٌ صور الكبير عبد المحسن بن غلبون الصوري (ت: ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م) فقال:

يا له طارقٌ من الحدّثانِ الحقّ ابنَ النّعمانِ بالنعمانِ
صيحةٌ أصبحت تُبلِّغُ أهلَ الـ شام صوتَ العويلِ من بغدادِ (١)

(٣)

كان للعمل الرائد الذي قاده بكامل الجدارة الشيخ المفيد في بغداد طاقته الجاذبة. بفضله وبفضل حلقاته الدراسية صار للشيعة لأول مرة حضوراً غير منكور في معتزك بغداد الفكري. وهو أمرٌ جذب إلى حلقاته أعداداً من الطامحين القادمين من مختلف الأقطار الدانية والقصيّة. أعرفهم: السيّد المرتضى، والشيخ الطوسي، وعلي بن أحمد النجاشي، وأحمد بن قدامة، وعلي بن محمد الفارسي. كلهم

مَنْ تَخَرَّجُوا عَلَيْهِ فِي الْفَقْهِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ. وَكُلُّهُمْ مِنْ ذَوِي الْأَثَرِ الْبَاقِي. وَكَانَ بَيْنَهُمْ
أَيْضاً، فِيهَا يَعُودُ لِبَحْثِنَا، رَجُلٌ يَحْمَلُ عَلَى عَاتِقِهِ عِبَاءَ إِحْبَابَاتِ قُرُونٍ، وَلَكِنَّهُ يَحْمَلُ
أَيْضاً مُفْجَأَةً غَيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ. ذَلِكَ هُوَ الرَّائِدُ الْكَبِيرُ أَبُو الْفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَثْمَانَ
الْكَرَاجِكِيُّ الطَّرَابِلِسِيُّ (ت: ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م).

والكراجكيُّ، مَنْ لَيْسَ يَعْلَمُ، هُوَ رَائِدٌ وَضَلَّ مَا انْقَطَعَ بَيْنَ مَاسْمِيْنَاهُ
التَّشِيْعِ الشَّامِيِّ، وَبَيْنَ الْبِيئَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي بَنَاهَا الْأَثْمَةُ فِي الْعِرَاقِ وَإِيرَانَ وَمَا وَالَاهَا.
وَذَلِكَ إِذْ شَدَّ الرَّحَالَ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ إِلَى بَغْدَادٍ عَنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ، فَحَضَرَ عَلَى الشَّيْخِ
الْمُفِيدِ. لِيَعُودَ مِنْهَا إِلَى وَطَنِهِ حَيْثُ نَشَرَ حُضُورَهُ الْبَاهِرَ، الَّذِي مَا يَزَالُ يُثِيرُ لَدَيْنَا
أَقْصَى الْعَجَبِ، فِي أَنْحَاءِ الشَّامِ: طَرَابِلِسَ، صَيْدَا، صُورَ، طَبْرِيَّةَ، الرَّمْلَةَ، وَفِي مِصْرَ
أَيْضاً، مِمَّا كَانَ لَهُ أَعْدُ الْأَثَرِ عَلَى رَأْبِ الصَّلَاةِ بَيْنَ شَقِيئِي التَّشِيْعِ. وَلَنْ نَخُوضَ فِي
أَعْمَالِ هَذَا الْعَالِمِ الْجَلِيلِ وَالرَّائِدِ الْكَبِيرِ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذِهِ الْإِشَارَةِ السَّرِيعَةِ الَّتِي
اِقْتَضَاهَا الْبَحْثُ. وَمَا عَلَى الْقَارِئِ اللَّيِّبِ الَّذِي تُحَرِّكُهُ هَذِهِ الْإِشَارَةُ إِلَى طَلْبِ
التَّفْصِيلِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى كِتَابِنَا (الْكَرَاجِكِيُّ، عَصْرُهُ، سِيرَتُهُ، عَالِمُهُ الْفِكْرِيُّ
وَمُصَنَّفَاتُهُ) (ط. قم، مؤسَّسة تراث الشيعة ١٤٣٤ هـ).

وكما يحدث دائماً بعد كلِّ رِيَادَةٍ أَصِيلَةٍ صَائِغَةٍ، فَقَدْ أَشْرَعَ الْكَرَاجِكِيُّ الْبَابَ
لَمَنْ بَعْدَهُ. فَفِي السَّنَةِ ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م، بَنَاءً عَلَى رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُنْدِيِّ فِي (رِيَاضِ
الْعُلَمَاءِ، ط. قم ١٤٠١ هـ: ٣ / ١٤٢) رَأَيْنَا عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ نَحْرِيرِ الطَّرَابِلِسِيِّ،
الْأَشْهَرَ بِكُنْيَتِهِ ابْنَ الْبَرَّاجِ، يَسِيرُ عَلَى الدَّرْبِ الَّذِي عَبَّه الْكَرَاجِكِيُّ، فَيَشُدُّ الرَّحَالَ
هُوَ أَيْضاً إِلَى بَغْدَادٍ، وَلِيَحْضَرَ عَلَى السَّيِّدِ الْمُرْتَضَى حَتَّى وَفَاةِ الْأَسْتَاذِ سَنَةِ ٤٣٦ هـ /
١٠٤٤ م. وَبَعْدَ سَنَتَيْنِ قَضَاهُمَا مَعَ رَفِيقِ دَرْسِهِ الشَّيْخِ الطُّوسِيِّ رَجَعَ إِلَى وَطَنِهِ
طَرَابِلِسَ الَّتِي كَانَتْ يَوْمَ ذَلِكَ إِمَارَةً نَاهِضَةً يَحْكُمُهَا أَمْرَاءُ بَنِي عِمَّارِ الْمُسْتَنْتَرِينَ. وَفِيهَا
أَمْضَى مَا بَقِيَ لَهُ مِنَ الْعُمُرِ قَاضِياً وَمُدْرَساً فِي مَدْرَسَتِهَا الْكَبِيرَةِ «دَارِ الْحِكْمَةِ».



وهذا هو مدخلنا لقراءة الحضور الفكريّ للسيد المرتضى في لبنان وما والاها، وفاءً بالعهد الذي عقدناه مع القارئ في العنوان.

(٤)

سنخذ من الأسئلة التي وُجّهت إلى السيد المرتضى من التّبانة و طرابلس وطبرية وجواباته عنها دليلاً على ما كان له من حضورٍ في منطقة البحث. وسأفترض أنّ القارئ اللبيب، الذي استوعب ما سبرناه من أسرار التاريخ الثقافي للمنطقة، سيوافقنا الرأي على أن المغزى الرئيس لتوجيه تلك المجموعة الكبيرة من الأسئلة إليه، واثنتان منها أكبر وأهمّ مدينتين شيعيتين في الشام في ذلك الأوان، هو أنه كان يُنظرُ إليه من أهلها الشيعة بوصفه مرجعيةً فكريةً - دينيةً كبرى. فهذا، فضلاً عن نوع الأسئلة بنفسه، وما تعكسه من هموم أصحابها الفكرية، ليُدلُّ دلالةً أكيدةً على مستوى فكريّ جيّدٍ لدى السائلين. هو فيما تُرجح من تأثير حضور الكراچكي وأعماله فيهما. نقول ذلك لأننا نعرف - بما يكفي - المستوى الفقير العاطفي للتشيع الموروث لدى أهليهما من أسلافهم المهاجرين من العراق من قبله، كما قلنا فيما فات. ولأننا لا نعرف مؤثراً غيره في هذا النطاق.

سنبداً بالتعريف بتلك الحواضر الشيعية الثلاث:

أمّا طرابلس فكانت مدينةً على ساحل البحر المتوسط شمال ما يُعرف اليوم بلبنان السياسي. مع ضرورة التنبيه على أنّ المدينة المعروفة اليوم بالاسم نفسه هي غير تلك التي كاتب أهلها السيد المرتضى بسؤالهم. لأنّ هذه سيهدمها المماليك بعد أن حرّروها من الاحتلال الصليبي، كي يمنعوا أهلها الأصليين الشيعة من العودة إليها بعد أن أخرجهم الصليبيون منها. وقد حقّقنا في كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية) أنّ أهلها الذين جعلوا منها إمارةً ناهضة، وخرج

منهم الكراچكي، هم أصلاً من المهاجرين الهمدانين الذين باينوا منزهم في الكوفة بعد السنة ٥١ هـ ونزلوا أنحاء عدّة من الشام، منها جبال الظنين المعروفة اليوم بالضّنيّة. ومنها تحوّلوا إلى سُكنى طرابلس.

وأما التّبانة فيبدو أنّها كانت قريةً تابعةً لطرابلس الأصليّة، نظنُّ أنّها كانت في موقع طرابلس الحاليّة. بدليل أنّ في هذه حتى اليوم حيٌّ يحملُ اسم التّبانة.

وأما طبريّة فهي نفسها المعروفةً بالاسم نفسه في الأرض المحتلّة. وأهلها الشيعة هم أيضاً من أهل الكوفة، وبالتحديد فصيلٌ من الأشعرين الذين باينوها بعد معركة دير الجماجم مع والي الأمويين الحجاج. فلما وقعت الهزيمة خرجوا هاربين من بطشه. واتجه فصيلٌ منهم شرقاً ونزلوا الأرض التي صيرّوها بلداً حمل اسم قُم، وبنوا مجدها العلميّ التّليد. في حين اتجه فصيلٌ آخرُ غرباً ونزلوا طبريّة.

(٥)

جمع السيّد المرتضى جواباته عن السؤالات الواردة إليه من تلك الخواضر الثلاث في بضع رسائل. منح كلاً منها اسماً ناشئاً من مصدرها المكاني. ولكنه أغفل ذكر الأسئلة، إلا في (جوابات المسائل التّبانيّة) و (جوابات المسائل الطّبريّة). مُتّكلاً فيما يبدو على أنّ السؤال يمكنُ معرفته من الجواب عنه. نُشرت جميعها باعثناء السيد مهدي رجائي، وبتقديم وإشراف السيد أحمد الحسيني، ضمن مجموع سمّاه (رسائل الشريف المرتضى). ولكن السيّد الحسيني، أمتعنا الله بطول بقاءه، وصف العمل على المجموع إجمالاً في مقدمته له بأنّه «طبعةٌ مُستعجلة» (٢). والحقُّ أنّ سوء النشرة حال أحياناً بيننا وبين حُسن الاستفادة من مادة المجموع الخصبه. ومن ذلك أنّنا في غير حين لم نتمكن من الجزم هل أنّ النصّ الذي بين أيدينا هو للمؤلف أم للمُحقّق.

المهم أن ما بين أيدينا من رسائل الشريف، مما يدخل في غرض الدراسة،
أربع رسائل:

- جوابات الرسائل التّبانيات^(٣).

- جوابات المسائل الطّبريّة^(٤).

- جوابات المسائل الطرابلسيّات الثانية^(٥).

- جوابات المسائل الطرابلسيّات الثالثة^(٦).

إنّ دراسة هذه الأسئلة وما أجاب السيّد عنها عملٌ هامٌّ جدّاً، ذلك
أنه:

- يكشف لنا حضوره القويّ والباهر خصوصاً بين شيعتها في ذلك الأوان.
فعندما تُوجّه إليه عشرات الأسئلة في موضوعات إشكاليّة بين كلاميّ وأصوليّ
وفقهيّ وتفسيريّ، من أهل ثلاثة مُدنٍ تتشرُّ على مسافةٍ شاسعةٍ، فإنّ أقلّ ما
يدلُّ عليه ذلك أنّه قد نجح في أن يكتسب لنفسه موقعاً مرجعياً فيها. وذلك
أمرٌ يحدث لأول مرّة في التاريخ الثقافي الشيعيّ، يُعيدنا إلى تأثير حضور
الكرّاجكي فيها. ولكنه يُشير أيضاً إلى الشخصيّة الكارزمية والموقع العالي المتميّز
للمسؤول لدى السائلين. خصوصاً إن نحن لاحظنا أنّ أمراً كهذا لم يحصل مع
الشيخ المفيد من قبله، ولا مع الشيخ الطوسي من بعده.

- إنّ خصوبة الأسئلة وتنوعها يكشف لنا أنّ الحالة الفكرية للشيعّة في
منطقة البحث كانت أفضل بكثيرٍ ممّا نعرف، أو نظنّ أننا نعرف. أي: إنّ هناك
جزءٌ كبيرٌ وهامٌّ جدّاً من تاريخنا الثقافي قد ضاع تماماً من الذاكرة والتسجيلات
التاريخية. وما من شكّ عندنا في أنّ السبب في ضياعها يرجع إلى البعثة السكّانية
الهائلة التي نزلت بالمنطقة، ومنها تلك المُدن الثلاث، بالغزو والاحتلال الصليبي لها،
وما نتج عنه من تهجير قسريّ للناجين من أهلها. ذلك أنّه من المعلوم أنّ للذاكرة

الجمعيّة للناس ارتباطٌ حَدِيثِيٌّ بالأرض - الوطن الذي كَمَتَ فيه الدَّاكِرَة . فإذا هم انقطعوا عنه فإنهم ينقطعون عن ذاكرتهم أيضاً، لبدأوا بناءً ذاكِرَة جديده في موطنهم الجديد. أمّا الدَّاكِرَة الضائعة فإنها تُنسى بوصفها تاريخاً مَوْعِيّاً، ولا يبقى منها في أحسن الأحوال إلا صورةٌ غامضة تُسمِّيها أسطورة .

- إنَّ السَّيِّدَ إذ اعتنى بحفظ أجوبته وتسجيلها بنحو رسائل، ثم طرَحَها للاستساحِ بحيثُ وصلتْ إلينا، قد دَرَجَ على تقليدٍ معمولٍ به بين العلماء من قبله ومن بعده. إذن، فعمله من هذه الوجهة، لا خصوصيةً فيه، ولا دلالة له تدعونا إلى البحثِ عنها. ولكننا لدى التأمل لا ننفي، وهو العارف ولا ريب بخصوصيةً وُضِعَ التشييعُ في المنطقة الشامية إجمالاً أنه أراد أن يُسَجَّلَ أيضاً بالتَّضْمُنِ، ونظراً لخصوصية الأسئلة وتنوعها، النَّقْلَةَ النوعيةً للتشييع في المنطقة، من الموروثِ إلى المُشارِكِ في الإشكاليات العالقة في بيئته الفكرية.

(٦)

تلك هي المغازي الثلاثة المُستفادَة من الرسائل الأربعة إجمالاً. لكنَّ دراستها دراسةً وافيةً يقتضي بحثاً مُسهباً أوسع بكثير من مقالة. وعليه فإننا فيما بقي من البحث سنعمدُ إلى فهرسة موضوعات كلِّ رسالةٍ رسالة. وذلك فيما نرى وافٍ بغرضنا منها، ومؤدبياً لحقِّ القارئ بمقدار ما وعدناه به في العنوان.

١ - جوابات المسائل التَّبانيات :

وهي الوحيدة التي اقتبسَ السَّيِّدُ في مقدمتها جزءاً من سؤالِ السائل. وهو تلميذٌ مجهولٌ من تلاميذه. وهي من (فصول) عشرة، كل (فصل) مُخصَّصٌ لمناقشة حُجَّةٍ من احتجاجات الذهاب إلى حُجَّةِ خبر الواحد، بالإضافة إلى إثبات حُجَّةِ

الإجماع. ومن المعلوم أنّ السيّد المرتضى هو من القائلين بانحصار الحجية في معرفة الأحكام الشرعية في الخبر المتواتر وفي الإجماع. وما ندرى هل أنّ صفة (فصل) من الأصل، أم هي إضافة من الناشر.

٢- جوابات المسائل الطبرية :

السائل مجهول، وإنّما دُكرَ بنحو المبني للمجهول. وحتى هذه الصيغة اضطرت جرّاء خطأ إملائيّ فيما يبدو : «سأل الشريف أحسن الله توفيقه» بدلاً عن : سئل الشريف. .. الخ. وهي عبارة عن أحد عشر سؤالاً وجواباتها. عُنوانت كلّ منها في النشرة بـ«مسألة» : «المسألة الأولى»، «المسألة الثانية»... الخ. وجميعها تدور على قضايا كلامية. باستثناء المسألتين التاسعة والعاشرتين اللتين دارتا على مسألتين فقهيتين.

٣- جوابات المسائل الطرابلسيات الثانية :

وهي اثنتا عشرة مسألة، تدور على إشكالياتٍ مُتنوّعة، منها الكلامي، ومنها الفقهي وما سوى ذلك. وفي بعض الأسئلة ما قد يدلُّ على أنّ السائل من غير الشيعة الإمامية. والأمر بحاجة إلى مزيد تفحصٍ وتدقيق. وعلى كلّ حال فإنّ مستوى الأسئلة يدلُّ على أنّ صاحبها ليس بذاك لجهة نضجه العلمي.

٤- جوابات المسائل الطرابلسيات الثالثة :

وهي ثلاثة وعشرون مسألة، تدورُ كسابقتها على إشكالياتٍ مُتنوّعة. ولكنها تفوقُ سابقتها من حيث المستوى.

(٧)

أخيراً أجدُّ من الواجبِ عليّ أن أؤكدَ على الفائدةِ المتوخَّاةِ من مُتَابَعَةِ البحثِ، خصوصاً أنَّه بالإضافةِ إلى ما وقفنا عليه من رسائلِ ثمةِ رسالتينِ غيرِ منشورتينِ : جواباتِ المسائلِ الطرابلسيّةِ الأولى وجواباتِ المسائلِ الصّيداويّةِ. ذلك أنَّ هذه الرسائلِ بمجموعها تنطوي على معلوماتِ هامّةٍ ومُتنوّعةٍ، يُمكنُ أن تُسهمَ في إضاءةِ جوانبِ هامّةٍ من تاريخنا الثقافي.

* هوامش البحث *

(١) ديوانه، ط. بيروت ١٣٧٨هـ / ١٦١ .

(٢) رسائل الشريف المرتضى، ط. قم ١٤٠٥ هـ : ١ / ١٨ .

(٣) رسائل : ١ / ٥ - ٩٦ .

(٤) رسائل : ١ / ١٣٥ - ١٦٦ .

(٥) رسائل : ١ / ٣١٠ - ٣٥٦ .

(٦) رسائل : ١ / ٣٥٩ - ٤٤٣ .

